مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّةِ

إِجْرَاءُ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَى الْأَسْبَابِ

جمعٌ وترتيبٌ

مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ رَسْلَانَ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ:

* فقدْ أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَىٰ فِي مُسْنَدِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَزَلَ عَلَىٰ أَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «ائْتِنَا»(١).

نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ ضَيْفًا عَلَىٰ أَعْرَابِيٍّ، فَأَكْرَمَ الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ مِنْ دَأْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مِنْ عَادَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِأَهْدَابِ الدِّينِ أَنَّهُ «مَنْ صَنَعَ لَكَ مَعْرُوفًا فَكَافِئْهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تُكَافِئُهُ بِهِ، فَقُلْ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا».

فَلَمَّا أَكْرَمَ الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «ائْتِنَا»، يَعْنِي انْزِلْ عَلَيْنَا حَتَّىٰ نُكَافِئَكَ، كَمَا كَافَئْتَنَا، وَنُكْرِمَكَ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَكْرَمْتَنَا.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَىٰ فِي «**الْمُسْنَدِ**»: (١٣/ ٢٣٦، رقم ٧٢٥٤)، وابن حبان في «**صحيحه**» بترتيب ابن بلبان: (٢/ ٥٠٠، رقم ٧٢٣)، وَالْحَاكِمُ فِي «**الْمُسْتَدْرَكِ**»: (٢/ ٤٠٤، رقم ٣٥٢٣).

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٦٢٢، رقم ٣١٣).

فَجَاءَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «سَلْ حَاجَتَكَ»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: «أَسْأَلُكَ نَاقَةً بِرَحْلِهَا، وَأَعْنُزًا يَحْلِبُهَا أَهْلِي»، وَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحُدُودِ الضَّيِّقَةِ مِنَ الْعَطَاءِ الدُّنْيَوِيِّ الَّذِي لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

وَلَمْ تَرْقَ هِمَّةُ الرَّجُلِ إِلَىٰ مَا رَقِيَتْ وَارْتَقَتْ هِمَّةُ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي كَانَ يَخْدُمُهُ، وَكَانَ يُعِدُّ وُضُوءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَهُ، وَيَبِيتُ لَدَيْهِ بِلَيْلٍ رَهْنَ الْإِشَارَةِ وَتَحْتَ الطَّلَبِ، فَأَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُكَافِئَهُ، فَقَالَ: «سَلْنِي حَاجَتَكَ».

فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنْظِرْنِي حَتَّىٰ أَنْظُرَ فِي أَمْرِي.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ غَيْرَ مُتَلَجْلِجٍ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ».

قَالَ: لَيْسَ إِلَّا ذَلِكَ.

قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»(١).

وَأَمَّا الْأَعْرَابِيُّ، فَإِنَّهُ سَأَلَ أَعْنُزًا يَحْلِبُهَا أَهْلُهُ، وَنَاقَةً بِرَحْلِهَا.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (١/ ٣٥٣، رقم ٤٨٩)، وأحمد في «**المسند**»: (٤/ ٩٥، رقم ١٦٥٧٨)، من حديث: رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه.
ورواية أحمد حسن إسنادها الألباني في «**الإرواء**»: (٢/ ٢٠٩).

قِصَّةُ: عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَعْجِزُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟».

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قَالَ ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ لَمَّا أَنْ خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ مُوسَىٰ -عليه الصلاة والسلام- مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّ يُوسُفَ كَانَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْنَا الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ- يَعْنِي عَلَىٰ أَسْلَافِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَاصَّتِهِمْ- أَنَّنَا إِذَا مَا خَرَجْنَا مِنْ مِصْرَ حَمَلْنَا أَعْظُمَهُ مَعَنَا.

فَقَالَ مُوسَىٰ: وَمَنْ يَعْلَمُ قَبْرَهُ؟

فَقَالُوا: مَا مِنَّا أَحَدٌ يَدْرِي قَبْرَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَجُوزٍ لَدَيْنَا.

فَدُعِيَتْ فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهَا مُوسَىٰ: أَيْنَ قَبْرُ يُوسُفَ؟

فَقَالَتْ: لَا أُخْبِرُكَ عَنْ قَبْرِهِ حَتَّىٰ تُعْطِيَنِي حُكْمِي.

قَالَ: وَمَا حُكْمُكِ؟

قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ.

فَلَمَّا أَنْ قَالَتْ ذَلِكَ كَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا حُكْمَهَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا.

إِذَنْ؛ أَخْبِرِينَا أَيْنَ قَبْرُ يُوسُفَ عليه السلام، وَسَتَكُونِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّوَعَلَا مَعَنَا فِي الْجَنَّةِ.

فَقَالَتْ بَعْدَمَا سَارَتْ مَعَهُمْ إِلَىٰ بُحَيْرَةٍ هُنَالِكَ عِنْدَ ضَحْضَاحٍ مِنْ مَائِهَا قَلِيلٍ: أَنْضِبُوا، يَعْنِي جَفِّفُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ.

قَالَتْ: احْفِرُوا هَهُنَا؛ فَحَفَرُوا فَوَقَعُوا عَلَىٰ أَعْظُمِهِ.

فَلَمَّا أَنِ اسْتَقَلَّتْ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَضَاءَ لَهُمُ الطَّرِيقُ كَالشَّمْسِ.

هَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ بِثَلَاثَةِ أَسَانِيدَ، وَقَالَ: إِنَّهُ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ وَحْدَهُ؛ فَإِنَّ الْبُخَارِيَّ لَمْ يُخْرِجْ لِيُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ شَيْئًا.

وَهَهُنَا إِشْكَالٌ قَدْ يَثُورُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷺ «أَخْرَجُوا أَعْظُمَهُ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ أَعْظُمُهُ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَضَاءَ لَهُ الطَّرِيقَ، كَأَنَّهُ الشَّمْسُ»؛ لِأَنَّ هَذَا يَبْدُوا مُعَارَضًا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (١/ ٢٧٥، رقم ١٠٤٧)، والنسائي في «**المجتبىٰ**»: (٣/ ٩١، رقم ١٣٧٤)، وابن ماجه في «**السنن**»: (١/ ٥٢٤، رقم ١٦٣٦)، من حديث: أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه.

=

فَكَيْفَ يُقَالُ هَهُنَا: إِنَّ مَا اسْتُخْرِجَ مِنْ يُوسُفَ عليه السلام مِنْ تِلْكَ الْبُحَيْرَةِ مِنْ ضَحْضَاحِهَا وَمَائِهَا الْقَلِيلِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ يَحْمِلُهُ مَعَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُمْ حَمَلُوا أَعْظُمَهُ؛ وَالرَّسُولُ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَكْلُ الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ أَمْرٌ لَا يَكُونُ؟

وَلَكِنْ، لَوْ أَنَّكَ تَدَبَّرْتَ حَدِيثَ ابْنَ عُمَرَ الَّذِي رَوَاهُ، مِنْ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ رضي الله عنه صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي قِصَّةِ الْمِنْبَرِ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّا صَنَعْنَا لَكَ أَعْوَادًا تَحْمِلُ أَوْ تَسْتَقِلُّ عَلَيْهَا أَعْظُمُكَ(١).

فَأَخْبَرَ الرَّسُولَ ﷺ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَا بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ يَقْوَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الصَّنْعَةِ مِمَّنْ كَانَ هُنَالِكَ؛ إِذِ الثَّابِتُ أَنَّ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ غُلَامٌ رُومِيٌّ نَجَّارٌ كَانَ حَاذِقًا فِي صَنْعَتِهِ.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الَّذِي يَرْوِي فِيهِ عَمَّا قَالَ تَمِيمٌ رضي الله عنه قَالَ: فَصَنَعَ لَهُ مِرْقَاتَيْنِ، يَعْنِي دَرَجَتَيْنِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَقِلُّ يَقُولُ بِأَعْظُمِهِ عَلَىٰ الثَّالِثَةِ ﷺ.

=

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (٤/ ٣٢، رقم ١٥٢٧).

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (١/ ٢٨٤، رقم ١٠٨١)، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَدَّنَ قَالَ لَهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ: أَلَا أَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَرًا يَا رَسُولَ اللهِ، يَجْمَعُ - أَوْ يَحْمِلُ - عِظَامَكَ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ**»، فَاتَّخَذَ لَهُ مِنْبَرًا مِرْقَاتَيْنِ.

والحديث جود إسناده الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٦٢٤).

وَإِذَنْ؛ فَهَذَا مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِ الْبَعْضِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ، مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِ الْجُزْءِ وَإِرَادَةِ الْمَجْمُوعِ، كَمَا قَالَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، يَعْنِي صَلَاتَهُ(١).

الْحَاصِلُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ يُخْبِرُ عَنْ أَمْرٍ يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَاتَبَ عَلَيْهِ؛ إِذْ إِنَّهُ ﷺ لَمَّا تَدَنَّتْ هِمَّةُ الرَّجُلِ إِلَىٰ نَاقَةٍ بِرَحْلِهَا، وَأَعْنُزٍ يَحْلِبُهَا أَهْلُهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَعْجِزُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ إِنَّهَا لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَىٰ الدُّنْيَا أَبَدًا، وَإِنَّمَا تَوَجَّهَتْ بِهِمَّتِهَا إِلَىٰ الْآخِرَةِ. وَالْمَسْئُولُ هَهُنَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَإِذَا كَانَ الْمَرْءُ يَسْأَلُ نَبِيَّهُ ﷺ فِي عَرْضٍ مَفْتُوحٍ لَا تَضْيِيقَ فِيهِ، وَلَا انْغِلَاقَ، إِذْ يَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «سَلْ حَاجَتَكَ»، فَإِنَّ الْهِمَّةَ يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَجَّهَ أَوَّلَ مَا تَتَوَجَّهُ إِلَىٰ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ؛ إِذْ هِيَ الْبَاقِيَةُ.

وَأَمَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا فَانِيَةٌ مُنْصَرِفَةٌ؛ فَلَوَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَعْنَاقَ الْقُلُوبِ، وَأَخَذَ بِأَزِمَّةِ الْأَفْئِدَةِ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَقَالَ مُعَاتِبًا كَأَنَّهُ يُعَاتِبُ الْأُمَّةَ فِي أَشْخَاصِ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم: «أَتَعْجِزُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!»، فَإِنَّهَا شَرَطَتْ شَرْطًا، وَصَارَتْ إِلَىٰ حُكْمٍ لَمْ تَتَنَازَلْ عَنْهُ، حَتَّىٰ جَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُصَدَّقًا؛ فَأَوْحَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، وَأَمَّا حُكْمُهَا فَهُوَ أَنْ تَكُونَ مَعَ مُوسَىٰ عليه السلام فِي الْجَنَّةِ.

---

(١) انظر: «السلسلة الصحيحة»: (١/ ٦٢٣ - ٦٢٤).

وَأَمَّا مَا كَانَ هُنَالِكَ مِنْ بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ؛ فَإِنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ قَدْ أَخَذَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ؛ إِذْ كَانَ أَوَّلُ دُخُولٍ لَهُمْ عَلَىٰ عَهْدِ يُوسُفَ عليه السلام، فَلَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ، وَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ شَرَطَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ هُنَالِكَ، وَوَصَّىٰ أَنَّهُ إِذَا مَا مَاتَ وَجَاءَ خُرُوجُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ يَوْمًا أَنْ يَحْمِلُوا أَعْظُمَهُ -بَعْدَ ذَلِكَ- مَعَهُمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.

ثُمَّ إِنَّكَ إِذَا مَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَمْرٍ يَلُوحُ هَهُنَا فِي ثَنَايَا النَّصِّ، وَجَدْتَ عَجَبًا؛ لِأَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام نَبِيٌّ، بَلْ رَسُولٌ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَهُوَ هَهُنَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا.

وَقَدْ تَتَسَاءَلُ: وَلِمَ لَمْ يَأْتِ الْوَحْيُ كَاشِفًا وَمُبَيِّنًا عَنْ مَوْضِعِ دَفْنِ يُوسُفَ عليه السلام مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَىٰ الْوَاسِطَةِ؟

وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ يُعَلِّمُنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِ كَيْفَ نَكُونُ مُتَوَكِّلِينَ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، آخِذِينَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ وَبِأَهْدَابِ الْحَيَاةِ.

وَهَذِهِ عَظَمَةُ الدِّينِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ خَلْقِهِ يَتَعَبَّدُهُمْ بِهِ فِي أَرْضِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْتَقِيمَ الْحَيَاةُ؛ إِذْ إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَجْعَلِ الْأَمْرَ مَبْنِيًّا عَلَىٰ غَيْبِيَّاتٍ لَا أَسْبَابَ فِيهَا، وَلَا مَوْكُولًا إِلَىٰ أَسْبَابٍ لَا غَيْبَ مَعَهَا.

وَإِنَّمَا جَعَلَ الْأَمْرَ مَبْنِيًّا عَلَىٰ غَيْبٍ يُؤْخَذُ مَعَهُ بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْتَقِيمَ الْحَيَاةُ، وَهَذَا مَا لَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «أَتَعْجِزُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!»، وَجَعَلَ الْمَثَلَ مَضْرُوبًا عَنْ عَجُوزٍ.

وَالْعَجُوزُ إِذَا مَا مَضَتْ بِهَا سُنُونُهَا، وَارْتَقَتْ أَيَّامُهَا تَسْعَىٰ إِلَىٰ الْفَنَدِ وَهُوَ الْخَطَلُ وَالزَّيْغُ فِي الرَّأْيِ وَالْبُعْدُ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ عَلَىٰ شِبْهِ السَّفَهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا أَخَذَتْ بِالْحَيْطَةِ حِكْمَةً، وَاحْتَكَمَتْ إِلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ وَاسْتَوْثَقَتْ لِنَفْسِهَا بِحُكْمِهَا حَتَّىٰ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ رَبُّهَا.

فَأَوْحَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، وَأَمَّا حُكْمُهَا فَهُوَ الْآخِرَةُ الْبَاقِيَةُ.

وَمَا أَصْدَقَ قَوْلِ الْقَائِلِ قَدِيمًا:

«إِنَّ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَىٰ، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَىٰ، لَفُضِّلَتِ الْآخِرَةُ عَلَىٰ الدُّنْيَا».

لَوْ كَانَتِ الْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَىٰ، وَكَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَىٰ لَفُضِّلَتِ الْآخِرَةُ عَلَىٰ الْأُولَىٰ عَلَىٰ الدُّنْيَا.

فَكَيْفَ وَالْآخِرَةُ مِنْ ذَهَبٍ يَبْقَىٰ، وَالْأُولَىٰ أَيِ الدُّنْيَا مِنْ خَزَفٍ يَفْنَىٰ؟!!

فَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ كَانَ مِنْ دَأْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَلْبُهُ تَوَكُّلًا مُطْلَقًا، وَهُوَ آخِذٌ بِأَسْبَابِ هَذِهِ الْحَيَاةِ.(*).

❁ ❁ ❁

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

التَّوَكُّلِ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ:

* وَالتَّوَكُّلُ: اعْتِقَادٌ وَاعْتِمَادٌ وَعَمَلٌ وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

الْأَوَّلُ: التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِ صِدْقِهِ وَهُوَ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ.

وَالثَّانِي: تَوَكُّلُ السِّرِّ: بِأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ مَيِّتٍ فِي جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ وَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ، لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَذَا تَصَرُّفًا سِرِّيًّا فِي الْكَوْنِ، فَيُعْطِيهِ قَدْرًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ.

وَالثَّالِثُ: التَّوَكُّلُ عَلَىٰ الْغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْغَيْرُ مَعَ الشُّعُورِ بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَانْحِطَاطِ مَرْتَبَةِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ مِثْلَ: أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ الْمَعَاشِ وَنَحْوَهُ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ لِقُوَّةِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ.

فَأَمَّا اعْتِمَادُهُ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنَّهُ سَبَبٌ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي قَدَّرَ ذَلِكَ وَأَجْرَاهُ عَلَىٰ يَدِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ، إِذَا كَانَ لِمَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ أَثَرٌ صَحِيحٌ فِي حُصُولِ ذَلِكَ.

التَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ لَا تَجُوزُ إِلَّا للهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِلَّا عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]

وَأَمَّا التَّوْكِيلُ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُ فَهُوَ جَائِزٌ وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ السَّبَبِ شِرْكٌ، وَتَرْكُ السَّبَبِ قَدْحٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالْكَمَالُ أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَأَنْ تَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ، حِينَئِذٍ تُحَقِّقُ التَّوْحِيدَ وَتُحَقِّقُ الِاتِّبَاعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَأْتِي بِالْحُسْنَيَيْنِ، بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَتَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ

وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ: هُوَ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ كِفَايَةً وَحَسْبًا فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِهِ،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]

وَقَوْلُهُ: وَعَلَىٰ اللهِ فَتَوَكَّلُوا: لَا عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَقَدَّمَ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ وَحَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبَ الِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ وَالْقَصْرِ، تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ لَا عَلَىٰ غَيْرِهِ.

حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ: أَنْ يَعْتَمِدَ الْعَبْدُ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ اعْتِمَادًا صَادِقًا فِي مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ مَعَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ الْمَأْذُونِ فِيهَا.(*).

❁ ❁ ❁

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ كِتَابِ(شَرْحُ الْجَامِعِ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ) ص٣٣و٣٤ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ

التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ:

* وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. (*).

* النَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ لِلْأُمَّةِ ضَرُورَةَ الْعَمَلِ، عَامِلِينَ بِقَاعِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ؛ هُمَا: التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ وَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ: فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ رضي الله عنه

فِيمَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «**أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ تَوَكَّلْتُم عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمُ اللهُ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَعُودُ بِطَانًا**»(٢)

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (الْإِشَاعَاتُ وَهَدْمُ الْمُجْتَمَعَاتِ) الْجُمُعَةَ ٢٩ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٧هـ الْمُوَافِقَ ٦/ ٥/ ٢٠١٦م

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الجامع**»: (٤/ ٥٧٣، رقم ٢٣٤٤)، وابن ماجه في «**السنن**»: (٢/ ١٣٩٤، رقم ٤١٦٤).

=

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ قَاعِدَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ فِي أَصْلِ هَذَا الدِّينِ:

الْأُولَىٰ: هِيَ قَاعِدَةُ التَّوَكُّلِ.

وَالثَّانِيَةُ: قَاعِدَةُ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.

وَالْحَدِيثُ يُفْهَمُ فَهْمًا مَضْبُوطًا، وَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي فَهْمِهِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَغْلُوطِ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ بِنَفْسِهِ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ وُجُوبِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، فَإِنَّ الطَّيْرَ فِي الْوُكُنَاتِ وَفِي الْأَعْشَاشِ لَا تَبْقَىٰ فِي أَعْشَاشِهَا، وَإِنَّمَا تُبَكِّرُ فِي الذَّهَابِ لِالْتِقَاطِ رِزْقِهَا.(*).

* «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

فَانْظُرْ، كَيْفَ جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي قَرَنٍ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَتَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِتَوَكُّلِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْفُؤَادِ وَالضَّمِيرِ كُلُّ ذَلِكَ مَعْقُودٌ بِعَزْمٍ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْخَلَّاقُ، وَهُوَ الرَّزَّاقُ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ كَتَبَ الْعَجْزَ وَالْكَيْسَ وَقَدَّرَ ذَلِكَ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، وَجَعَلَ لِلْخَلْقِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَدْخَلًا، وَإِلَيْهَا طَرِيقًا، فَيَجْمَعُ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ الْقَلْبِيَّ إِلَىٰ أَمْرٍ حِسِّيٍّ مَادِّيٍّ لَا مَعْنَوِيٍّ.

=

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وكذا صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٦٢٠، رقم ٣١٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (قَضِيَّةُ الرِّزْقِ) ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ الْمُوَافِقَ ١٧/ ٢/ ٢٠١٧م

وَإِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي كَانَ هُنَالِكَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ**».

ثُمَّ جَعَلَ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ ضَارِبَةً بِقَدَرٍ مِنْ غَيْرِ مَا غُلُوٍّ وَإِفْرَاطٍ وَمِنْ غَيْرِ مَا تَقَاعُسٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الْأَمْرَ مُحْكَمًا بَيْنَ هَذَيْنِ أَيْ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْغَايَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ مَا خَلَلٍ فِيهِ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَرَزَقَكُمْ»، فَإِنَّ الَّذِي يَرْزُقُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ وَالَّذِي قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ أَجَلًا، وَالَّذِي يَسُوقُ الرِّزْقَ بَعْدُ هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا رَازِقَ وَلَا رَزَّاقَ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَتَأَتَّىٰ الْخَيْرُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ، إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ جَلَّوَعَلَا ثُمَّ تَأْتِي الْأَسْبَابُ هَهُنَا بِقَوْلِ نَبِيِّنَا ﷺ: «لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ».

ثُمَّ جَعَلَ حَرَكَةَ الطَّيْرِ غُدُوًّا وَرَوَاحًا، بُكُورًا وَعَشِيَّةً، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «تَغْدُو خِمَاصًا»، وَهِيَ خُمْصَانُ الْبُطُونِ الْحَوَاصِلِ؛ لَا شَيْءَ فِيهَا، وَإِنَّمَا هِيَ مُلْتَصِقَةٌ كَخَمِيصِ الْبَطْنِ الْتَصَقَ جِدَارُ بَطْنِهِ بِظَهْرِهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَمِنْ خَوَاءِ الْجَوْفِ إِذْ لَا شَيْءَ فِيهِ.

وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَأْتِي بِحَرَكَةٍ غَيْرِ مَحْسُوبَةٍ عَلَىٰ نَسَقٍ وَلَا بِمِقْيَاسٍ؛ لِأَنَّهُ أَتَىٰ بِالطَّيْرِ، وَالطَّيْرُ تَخْرُجُ مُتَوَكِّلَةً عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يَعْنِيهَا أَنْ يَكُونَ الْعَالَمُ مُتَعَرِّضًا لِمَجَاعَةٍ، وَلَا أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ مِنْ عَلَىٰ صَفْحَتِهِ وَمِنْ عَلَىٰ وَجْهِهِ الْحُبُوبُ وَغَابَتْ عَنْهُ الْأَقْوَاتُ.

وَإِنَّمَا هِيَ تَخْرُجُ مُتَوَكِّلَةً عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقَّ التَّوَكُّلِ، ثُمَّ تَسْعَىٰ سَعْيًا رَفِيقًا؛ لِأَنَّهَا تَخْرُجُ غَيْرَ عَابِئَةٍ بِمَا يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَرَكَتِهَا، وَمِنْ أَثَرِ ذَلِكَ وَمِنْ

نَتِيجَتِهِ وَإِنَّمَا هِيَ مُتَوَكِّلَةً عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي ضَمِنَ الْأَقْوَاتَ أَصْلًا فِي أَصْلِ الْحَيَاةِ.(*).

* يقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَوْ تَوَكَّلْتُم عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمُ اللهُ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو..»: وَالْغُدُوُّ: هُوَ الْخُرُوجُ فِي بُكْرَةِ النَّهَارِ، فَتَغْدُو هَذِهِ الطُّيُورُ مِنْ أَعْشَاشِهَا وَوُكُنَاتِهَا مِنْ أَجْلِ الْتِقَاطِ رِزقِهَا، مُبَكِّرَةً مَعَ خُيُوطِ الْفَجْرِ الْأَوَّلِ، سَاعِيَةً فِي أَرْضِ اللهِ، لَكِنَّهَا لَا تَحْمَلُ لِرِزْقِهَا هَمًّا، وَاللهُ تب يَرْزُقُهَا كَمَا رَزَقَهَا الْحَيَاةَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْيَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ رِزْقٍ.

وَالْحَيَاةُ وَالْأَجَلُ يَرْتَبِطَانِ بِالرِّزْقِ ارْتِبَاطًا مُبَاشَرًا، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَا يَحْيَا كَائِنٌ حَيٌّ بِغَيْرِ رِزْقٍ، فَارْتِبَاطُ الْأَجَلِ بِالرِّزْقِ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ بِصَيْرُورَةٍ تَمْضِي إِلَىٰ الْمَوْتِ، وَحِينَئِذٍ لَا أَجَلَ وَلَا رِزْق.(*/٢).

* وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ فِي لُغَتِهِمْ، وَفِي مُوَاضَعَاتِهِمْ، وَفِي عُرْفِهِمُ اللُّغَوِيِّ، وَمَا قَدِ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ، يَقُولُونَ: فُلَانٌ حَيٌّ يُرْزَقُ، وَلَا يَقُولُونَ أَبَدًا فُلَانٌ حَيٌّ لَا يُرْزَقُ؛ لِأَنَّ انْعِدَامَ الرِّزْقِ يَعْنِي انْعِدَامَ الْحَيَاةِ، كَمَا أَوْحَىٰ بِذَلِكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ خَلِيلِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْفَعُهُ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ**

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (قَضِيَّةُ الرِّزْقِ) ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ الْمُوَافِقَ ١٧/ ٢/ ٢٠١٧م بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ

نَفَثَ فِي رُوعِي إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا؛ إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا»(١).

فَانْظُرْ! يَا هَدَاكَ اللهُ، إِلَىٰ هَذَا الرَّبْطِ بَيْنَ الْأَجَلِ وَالرِّزْقِ فِي قَرَنٍ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَرْفَعُ ذَلِكَ إِلَىٰ رَبِّ الْعِزَّةِ جَلَّوَعَلَا وَلَا يَجْعَلُهُ مُوحًىٰ بِهِ مَعْنًىٰ، ثُمَّ يَصُوغُهُ لَفْظًا، وَإِنَّمَا يَقُولُ ﷺ بِارْتِقَاءٍ إِلَىٰ أَعْلَىٰ شَيْئًا فَشَيْئًا: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ -يَعْنِي جِبْرِيلَ عليه السلام- قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ».(*).

* فَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الطُّيُورَ تَغْدُو مُبَكِّرَةً مِنْ أَعْشَاشِهَا، تَطْلُبُ رِزْقَهَا، تَلْتَقِطُهُ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ، لَا تَحْمِلُ لَهُ هَمًّا، خِمَاصًا: جَمْعُ أَخْمَصٍ، وَهَذَهِ الْحَوَاصِلُ الْخُمْصُ قَدْ الْتَزَقَتْ لُحُومُهَا بِبَعْضِهَا، بِحَيْثُ إِنَّهَا لَا تَحْوِي شَيْئًا، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَعُودُ بِطَانًا: وَقَدْ امْتَلَأَتْ بُطُونُهَا وَحَوَاصِلُهَا، مِنْ أَيْنَ؟!!

مِنْ رِزْقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا

هَلْ قَدَّرَتْ لِذَلِكَ تَقْدِيرًا؟!!

هَلْ وَضَعَتْ لَهُ خُطَّةً لِلْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ اكْتِسَابِهِ؟!!

---

(١) أخرجه الطبراني في «**الكبير**»: (٨/ ١٦٦، رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في «**الحلية**»: (١٠/ ٢٦).

والحديث صححه الألباني في «**صحيح الجامع**»: (٢٠٨٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

إِنَّمَا أَخَذَتْ بِالْأَسْبَابِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ رَبِّ الْأَسْبَابِ، بِحَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخْرُجُ مِنْ قَيْدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَدْخَلٌ، وَيَدْخُلُ فِي أَسْرِ الْعُبُودِيَّةِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ، أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، لَا يَدَّعِي رِزْقًا، وَلَا يَدَّعِي حَوْلًا وَلَا حِيلَةً؛ لِأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُهُ وَهُوَ رَازِقُهُ، وَهُوَ مَالِكُ أَمْرِهِ، وَنَاصِيتُهُ بِيَدِهِ.

وَهُوَ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ فِيهِ، وَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ فِيهِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ، وَأَمَّا الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ فَهَذَا مَوْكُولٌ إِلَىٰ الْعَبْدِ، وَلَا يُعَوِّلُ الْمَرْءُ عَلَىٰ السَّبَبِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَأْخُذُونَ كَثِيرًا بِالْأَسْبَابِ وَلَا يُحَصِّلُونَ شَيْئًا مِنَ النَّتَائِجِ.(*).

* «تَغْدُوا خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»، لَا هِيَ بِالَّتِي عَطَّلَتِ الْأَسْبَابَ أَنْ تَكُونَ فَاعِلَةً فِي كَوْنِ رَبِّ الْأَرْبَابِ وَلَا هِيَ بِالَّتِي أَغْرَقَتْ فِي الْأَسْبَابِ فَجَعَلَتِ التَّوَكُّلَ عَلَيْهَا، وَالْمُنْتَهَىٰ إِلَيْهَا.(*/٢).

* وَلِنَعْلَمْ جَمِيعًا أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ عَامِرٌ بِالْكَائِنَاتِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ، وَكُلُّهَا مَرْزُوقٌ مِنْ رِزْقِ اللهِ جع وَهُوَ أَمْرٌ عِنْدَمَا يَتَأَمَّلُ الْمَرْءُ فِيهِ يَكَادُ عَقْلُهُ يَذْهَبُ مِنْهُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ -مَثَلًا- وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْبَحْرِيَّةَ الَّتِي تَحْيَا فِي

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (قَضِيَّةُ الرِّزْقِ) ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ الْمُوَافِقَ ١٧/ ٢/ ٢٠١٧م

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

الْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ هِيَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْكَائِنَاتِ الْبَرِّيَّةِ بِمَا لَا يُقَاسُ، وَكُلُّهَا مَرْزُوقَةٌ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا دَوْرَةُ حَيَاةٍ، تُولَدُ بِالْمِيلَادِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ، ثُمَّ تَمْضِي فِي حَيَاتِهَا بِرِزْقٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ تَغْذِيَةٍ أَوْ نَفَسٍ أَوْ إِخْرَاجٍ، تَتَكَاثَرُ أَوْ لَا تَتَكَاثَرُ، ثُمَّ يَنْتَهِي أَجَلُهَا عِنْدَ حَدٍّ حَدَّدَهُ اللهُ تب وَمَسَارِبُهَا فِي الْحَيَاةِ مَحْسُوبَةٌ.

وَتَأَمَّلْ فِي رِزْقِ النَّمْلِ، وَهُوَ مِثَالٌ عَجِيبٌ!!

هَذَا النَّمْلُ الَّذِي تَرَاهُ مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ كُلُّهُ مَخْلُوقٌ بِخَلْقِ اللهِ جع وَبِقُدْرَتِهِ، بَدَأَ بِبِدَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ -بِدَايَةِ الْخَلْقِ لَهُ- بِكُلِّ نَمْلَةٍ نَمْلَةٍ، مِمَّا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ جع، ثُمَّ تَمْضِي فِي حَيَاتِهَا مَرْزُوقَةً بِرِزْقِهَا، فَتَنْمُو شَيْئًا فَشَيْئًا، تَتَكَاثَرُ أَوْ لَا تَتَكَاثَرُ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا انْتَهَىٰ عُمُرُهَا.(*).

* وَإِنَّ هَهُنَا تَوَازُنٌ دَقِيقٌ جِدًّا لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِحَّةِ انْتِسَابِ هَذَا الدِّينِ إِلَىٰ رَبِّ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ-إِي وَاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - بِصَدْقِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ لَكَفَىٰ وَشَفَىٰ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مِمَّنْ آتَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُسْكَةً مِنَ الْعَقْلِ، وَوَفْرَةً مِنْ هَذَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهِ مِمَّا آتَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهُ مِنْ حِسِّ الضَّمِيرِ، وَتَوَقُّدِ الْفُؤَادِ.

وَهَذَا نَبِيُّنَا ﷺ يَجْعَلُ لَنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ أُمُورًا كَثِيرَةً جِدًّا:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (قَضِيَّةُ الرِّزْقِ) ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ الْمُوَافِقَ ١٧/ ٢/ ٢٠١٧م

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»، ثُمَّ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَمَهْمَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- إِلَّا الْخَيْرُ، وَلَا يَنْزِلُ مِنْ رَبِّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- إِلَّا الْفَضْلُ، يَقُولُ: «مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ».

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَصِّلَ الْخَيْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ آخِذًا بِالسَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ سَالِكًا الطَّرِيقَ الْقَوِيمَ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ إِذْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَنْ يَعُودَ إِلَّا بِقَبْضِ الرِّيحِ كَالَّذِي يَخُطُّ عَلَىٰ الْمَاءِ، أَوْ يَقْبِضُ عَلَيْهِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ.

النَّبِيُّ ﷺ يَجْعَلُ لَنَا مِثْلَ هَذَا الضَّبْطِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ بِأَمْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَهُوَ آخِذٌ بِالْأَسْبَابِ أَيْضًا ﷺ.(*).

❁ ❁ ❁

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

السَّعْيُ فِي الْأَرْضِ وَالْعَمَلُ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ:

وَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْعَظِيمَ أَمَرَنَا بِالسَّعْيِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَمَلِ لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ وَقَدْ عُنِيَ الْإِسْلَامُ بِالْمَالِ عِنَايَةً بَالِغَةً حَيْثُ حَذَّرَنَا الرَّسُولُ مِنْ إِضَاعَتِهِ:

عِنَايَةُ الْإِسْلَامِ بِالْمَالِ:

* قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ فَيَرْضَىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»(١)

وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(*).

إِتْقَانُ الْعَمَلِ وَزِيَادَةُ الْإِنْتَاجِ:

* فَتَمَسَّكُوا بِالسُّنَّةِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَاعْمَلُوا اجْتَهِدُوا فِي الْعَمَلِ فَإِنَّهُ لَا خُرُوجَ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ إِلَّا بِكَلِمَتَيْنِ أَنْ يَعْمَلَ كُلٌّ مِنَّا عَلَىٰ قَدْرِ طَاقَتِهِ لَا عَلَىٰ قَدْرِ حَاجَتِهِ لِأَنَّ النَّاسَ حَتَّىٰ هَذِهِ لَا يَعْمَلُونَهَا يَعْنِي هُمْ لَا يَعْمَلُونَ أَصْلًا لَا عَلَىٰ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: (٣/ ١٣٤٠، رقم ١٧١٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (أُصُولُ دَعْوَتِنَا) الْجُمُعَةَ ٢٥ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٢هـ الْمُوَافِقَ ٢٣/ ٩/ ٢٠١١م

قَدْرِ الطَّاقَةِ ولَا عَلَىٰ قَدْرِ الْحَاجَةِ، تَعَوَّدُوا عَلَىٰ الْأَخْذِ مِنْ غَيْرِ عَطَاءٍ وَهَذَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ ﷻ وَلَا يَرْضَاهُ الدِّينُ الْحَنِيفُ، عِزُّكُمْ وَشَرَفُكُمْ دِينُكُمْ حَيَاتُكُمْ وَمَمَاتُكُمْ دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ هُوَ هَذَا الدِّينُ الْحَنِيفُ.(*).

حَثُّ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ فِي الْأَرْضِ:

* قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]

فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَتَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِكُمْ وَمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ وَمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ وَاطْلُبُوا رِزْقَ اللهِ بِأَنَاةٍ وَرِفْقٍ مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ رَغْبَةً فِي الْفَوْزِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.(*).

* وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]

(فَاللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مُنْقَادَةً سَهْلَةً مُطَوَّعَةً تَحْرُثُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَ كُنُوزَهَا وَتَنْتَفِعُونَ مِنْ طَاقَاتِهَا وَخَصَائِصِ عَنَاصِرِهَا فَامْشُوا فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا وَنَوَاحِيهَا مَشْيًا رَفِيقًا لِتَحْصِيلِ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ وَكُلُوا مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ لَكُمْ فِي

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (دَاعِش وَالْإِخْوَانُ) ٢٥/ ٨/ ٢٠١٤م

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ (سُورَةُ الْجُمُعَةِ) الِاثْنَيْنِ ١٨ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٧هـ الْمُوَافِقَ ٣٠/ ١١/ ٢٠١٥م

الْأَرْضِ وَاكْتَسِبُوا الرِّزْقَ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَكُمْ وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تَبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ).(*).

أَفْضَلُ مَا أَكَلَ الْعَبْدُ مَا كَانَ مِنْ سَعْيِهِ:

* وَعَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(٢).

وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَالْأَنْصَارُ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلٌ فِي أَمْوَالِهِمْ، فِي زُرُوعِهِمْ وَفِي بَسَاتِينِهِمْ(٣).(*/٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ (سُورَةَ الْمُلْكِ) الِاثْنَيْنِ ١٨ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٧هـ الْمُوَافِقَ ٣٠/ ١١/ ٢٠١٥م

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: (٤/ ٣٠٣، رقم ٢٠٧٢).

(٣) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٢١٣ - ٢١٤، رقم ١١٨)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٩٣٩، رقم ٢٤٩٢)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:
«إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (مِنْ آدَابِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ) الْأَرْبِعَاءَ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣١هـ الْمُوَافِقَ ١٤/ ٧/ ٢٠١٠م

* فَالْإِسْلَامُ يَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ بِهِ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَيَحُثُّهُمْ عَلَىٰ السَّعْيِ وَالتَّكَسُّبِ فَهُوَ دِينٌ يُؤَكِّدُ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ وَيَذُمُّ الْكَسَلَ وَالْخُمُولَ وَالِاتِّكَالِيَّةَ إِذْ لَا مَكَانَ فِيهِ لِلِاسْتِرْخَاءِ وَالْبَطَالَةِ وَلِاعْتِمَادٍ عَلَىٰ الْآخَرِينَ وَاسْتِجْلَائِهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه «إِنِّي لَأَرَىٰ الرَّجُلَ فَيُعْجِبُنِي فَإِذَا قِيلَ لَا حِرْفَةَ لَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِي»(١).

فالْإِسْلَامَ دِينُ عِبَادَةٍ وَعَمَلٍ، يَحُثُّ الْجَمِيعَ عَلَىٰ الْإِنْتَاجِ وَالْإِبْدَاعِ، وَيَهِيبُ بِفِئَاتِ الْمُجْتَمَعِ كَافَّةً أَنْ تَنْهَضَ وَتَعْمَلَ بِإِتْقَانٍ، وَيَقُومَ كُلٌّ بِدَوْرِهِ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ فِيهِ؛ لِنَفْعِ الْأُمَّةِ وَإِفَادَتِهَا ولم يحدد الإسلام العمل في شهر دون آخر بل حث عليه في الشهور والأيام كلها.(*).

---

(١) ذكره ابن قتيبة معلقا في «غريب الحديث»: (٢/ ٥٤) ، وأخرجه ابن المرزبان في «المروءة»: (ص ٣٩ - ٤٠، رقم ٢٣) ، والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم»: (٧/ ١١٧، رقم ٣٠٠٥) ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: (ص ٢٥٢) ، من طريق: الْمَدَائِنِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ:
بَلَغَنِي أَنَّ عُمَرَ بن الْخطاب قال: «إِنِّي لأرىٰ الرجل فَيُعْجِبنِي، فَأَقُول: هَل لَهُ حِرْفَة؟ ، فَإِن قَالُوا: «لَا» ، قَالَ: «سَقَطَ مِنْ عَيْنِي».
وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (انْتِصَارَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي رَمَضَانَ) الْجُمُعَةَ ٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٩هـ الْمُوَافِقَ ٢٥/ ٥/ ٢٠١٨م

الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِنْتَاجِ:

* فَإِنَّ فِي الْعَمَلِ قُوَّةً لِلْأُمَّةِ لِكَثْرَةِ إِنْتَاجِهَا، وَإِغْنَاءِ أَفْرَادِهَا؛ فَيَعُودُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ، وَالرِّعَايَةِ الصِّحِّيَّةِ، وَاسْتِغْنَائِهَا عَنْ أَعْدَائِهَا، وَالْمَهَابَةِ لَهَا فِي أَعْيُنِهِمْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ الَّتِي تَعُودُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ.

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].(*).

* وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»(٢) وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (مِنْ آدَابِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ) الْأَرْبِعَاءَ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣١هـ الْمُوَافِقَ ١٤/ ٧/ ٢٠١٠م

(٢) «الأدب المفرد» للبخاري: (ص ١٦٨ - ١٦٩، رقم ٤٧٩) ، وأَخْرَجَهُ أيضا: الطَّيَالِسِيُّ في «المسند»: (٣/ ٥٤٥ رقم ٢١٨١)، وَأَحْمَدُ في «المسند»: (٣/ ١٨٣ - ١٨٤ و ١٩١)، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ كما في المنتخب من «المسند»: (ص ٣٦٦، رقم ١٢١٦) ، وَالْبَزَّارُ في «المسند»: (١٤/ ١٧، رقم ٧٤٠٨)، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ»: (٦/ ٧٥ - ٧٦، ترجمة ١٢٠٨) ، مِنْ حديث: أَنَسٍ رضي الله عنه.

والحديث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»: (١/ ٣٨، رقم ٩) ، وفي «صحيح الأدب المفرد»: (ص ١٨١، رقم ٣٧١).

وَفَسِيلَةٌ: هِيَ النَّخْلَةُ الصَّغِيرَةُ.

هَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَىٰ غَرْسِ الْأَشْجَارِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ؛ لِتَبْقَىٰ هَذِهِ الدَّارُ عَامِرَةً إِلَىٰ آخِرِ أَمَدِهَا الْمَحْدُودِ الْمَعْلُومِ عِنْدَ خَالِقِهَا، فَكَمَا غَرَسَ لَكَ غَيْرُكَ فَانْتَفَعْتَ بِهِ، فَاغْرِسْ أَنْتَ لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَكَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا صَبَابَةٌ وَذَلِكَ بِهَذَا الْقَصْدِ لَا يُنَافِي الزُّهْدَ وَالتَّقَلُّلَ مِنَ الدُّنْيَا وَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ أَحَادِيثَ فِي اسْتِثْمَارِ الْأَرْضِ وَزَرْعِهَا وَالْحَثِّ عَلَىٰ ذَلِكَ وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ الْحَضِّ عَلَىٰ الِاسْتِثْمَارِ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْكَرِيمَةِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعَنَا فَإِنَّ فِيهِ تَرْغِيبًا عَظِيمًا عَلَىٰ اغْتِنَامِ آخِرِ فُرْصَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ زَرْعِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَيَجْرِي لَهُ أَجْرُهُ وَتُكْتَبُ لَهُ صَدَقَتُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.(*).

❁ ❁ ❁

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (شَرْحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ) الْمُحَاضَرَةَ (٤٠) الْأَحَدَ ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٢هـ الْمُوَافِقَ ٢٦/ ٦/ ٢٠١١م

صُوَرٌ مِنْ حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ
تُعَلِّمُنَا الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ:

وَلَوْ تَأَمَّلْنَا حَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجَدْنَاهَا كُلَّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تَوَكُّلًا عَلَى اللهِ مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ:

نُوحٌ عليه السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود: ٣٧-٣٨]

(وَاصْنَعْ السَّفِينَةَ بِمَرْأًى مِنَّا مَحْفُوظًا بِكَلَاءَتِنَا وَعِنَايَتِنَا وَبِوَحْيِنَا فِي خُطَّةِ الْعَمَلِ وَبِنَاءِ السَّفِينَةِ وَطَرِيقَةِ التَّنْفِيذِ وَلَا تُخَاطِبْنِي طَالِبًا إِمْهَالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكَ فَإِنِّي قَدْ حَكَمْتُ بِإِغْرَاقِهِمْ قَضَاءً مُبْرَمًا لَا مَرَدَّ لَهُ، فَنَفَّذَ نُوحٌ أَمْرَ رَبِّهِ وَصَارَ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ الْبَحْرِيَّةَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِمَّنْ يُعِينُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مُسْتَعْلِينَ عَلَيْهِ بِأَوْضَاعِهِمْ الِاجْتِمَاعِيَّةِ اسْتَهْزَءُوا بِهِ لِصُنْعِهِ السَّفِينَةَ،

قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ بَعْدَ صَبْرٍ طَوِيلٍ عَلَىٰ سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ: إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ بِمَا نَصْنَعُ وَجَهْلِكُمْ مِنَ الْغَايَةِ مِنْهُ، فَإِنَّا الْآنَ نَسْخَرُ مِنْكُمْ مُقَابَلَةً بِمِثْلِ عَمَلِكُمْ، لِعِلْمِنَا بِأَنَّكُمْ هَالِكُونَ غَرْقَىٰ).(*).

فَكَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَى رَبِّهِ بِأَخْذِهِ بِالْأَسْبَابِ وَصُنْعِ السَّفِينَةِ سَبَبًا فِي نَجَاتِهِ وَنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مَعَهُ.

دَاوُدُ عليه السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:١٠-١١]

(وَنُقْسِمُ مُؤَكِّدِينَ أَنَّنَا آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا عَطَاءً زَائِدًا، خَصَصْنَاهُ بِهِ، وَمِنْ هَذَا الْفَضْلِ: تَرْجِيعُ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ صَدَىٰ صَوْتِهِ الشَّجِيِّ فِي تَسَابِيحِهِ، وَقُلْنَا لِلْجِبَالِ وَالطَّيْرِ: رَجِّعِي مَعَهُ تَسْبِيحَهُ إِذَا سَبَّحَ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ يَعْمَلُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا مَطْرَقَةٍ، وَأَمَرْنَاهُ أَنِ اعْمَلْ يَا دَاوُدُ دُرُوعًا تَامَّاتٍ وَاسِعَاتٍ سَاتِرَاتٍ، وَأَحْكِمْ مَقَادِيرَ حَلْقِ الدُّرُوعِ وَمَقَادِيرَ الثُّقُوبِ عِنْدَ مَوَاطِنِ اتِّصَالِهَا بِبَعْضِهَا، وَمَقَادِيرَ مَسَامِيرِ الرَّبْطِ بَيْنَهَا حَتَّىٰ تُؤَدِّيَ الْغَرَضَ مِنْهَا أَدَاءً

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) سُورَةَ هُودٍ الْأَحَدَ ٢٠ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ ١٤٣٦هـ الْمُوَافِقَ ٤/ ١٠/ ٢٠١٥م وَالِاثْنَيْنَ ٢١ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ ١٤٣٦هـ الْمُوَافِقَ ٥/ ١٠/ ٢٠١٥م

حَسَنًا، وَأَحْكِمْ تَفْصِيلَهَا عَلَىٰ مَقَادِيرِ أَجْسَادِ لَابِسِيهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ وَافِيَةً الْوِقَايَةَ، تَامَّةَ الصُّنْعِ، وَاعْمَلْ يَا دَاوُدَ وَأَهْلُكَ عَمَلًا صَالِحًا مُتْقَنًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فَأُجَازِيكُمْ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَوْمَ الدِّينِ فَوْقَ مَا أَمْتَحِنُكُمْ مِنْ ثَوَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا.(*).

فَأَخَذَ بِالْأَسْبَابِ وَكَانَ يَعْمَلُ مَا يَنْفَعُهُ وَيَنْفَعُ اللهُ بِهِ النَّاسَ

* وعَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ(٢) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِه».(*/٢).

يُوسُفُ عليه السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِمَا حَدَثَ لِيُوسُفَ عليه السلام مَعَ مَلِكِ مِصْرَ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) سُورَةَ سَبَأٍ الْخَمِيسَ ٣٠ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٧هـ الْمُوَافِقَ ١٢/ ١١/ ٢٠١٥م

(٢) «الصحيح»: (٤/ ٣٠٣، رقم ٢٠٧٢).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةِ (مِنْ آدَابِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ) الْأَرْبِعَاءَ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣١هـ الْمُوَافِقَ ١٤/ ٧/ ٢٠١٠م

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩].

(وَقَالَ مَلِكُ مِصْرَ إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ وَسَبْعَ بَقَرَاتٍ فِي غَايَةِ الْهُزَالِ، فَابْتَلَعَتِ الْعِجَافُ السِّمَانَ، وَدَخَلْنَ فِي بُطُونِهِنَّ، وَلَمْ يُرَ مِنْهُنَّ شَيْءٌ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ عَلَىٰ الْهَزِيلَاتِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَرَأَيْتُ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ قَدْ انْعَقَدَ حَبُّهَا، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ أُخَرَ يَابِسَاتٍ قَدْ اسْتُحْصِدَتْ، فَالْتَوَتِ الْيَابِسَاتُ عَلَىٰ الْخُضْرِ حَتَّىٰ عَلَوْنَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ قُدْرَتِهَا شَيْءٌ.

يَا أَيُّهَا السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ! يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ! أَخْبِرُونِي بِتَأْوِيلِ رُؤْيَايَ الْخَطِيرَةِ وَعَبِّرُوهَا لِي، وَاذْكُرُوا بُعْدَهَا الْوَاقِعِيَّ فِي هَذَا الْكَوْنِ، إِنْ كُنْتُمْ تُحْسِنُونَ عِلْمَ الْعِبَارَةِ وَتَفْسِيرِ رُمُوزِ الْأَحْلَامِ.

قَالَ الْمَلَأُ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكَهَنَةِ وَالْمُعَبِّرِينَ مُجِيبِينَ الْمَلِكَ: رُؤْيَاكَ هَذِهِ أَخْلَاطٌ مُشْتَبِهَةٌ، وَمَنَامَاتٌ مُتَدَاخِلَةٌ بَاطِلَةٌ، وَمَا نَحْنُ بِتَفْسِيرِ الْمَنَامَاتِ بِعَالِمِينَ.

وَقَالَ السَّاقِي الَّذِي نَجَا مِنَ الْقَتْلِ بَعْدَ هَلَاكِ صَاحِبِهِ الْخَبَّازِ، وَتَذَكَّرَ قَوْلَ يُوسُفَ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»، قَالَ: أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِتَأْوِيلِ

هَذِهِ الرُّؤْيَا، إِذْ أَسْتَفْتِي فِيهَا السَّجِينَ الْعَبْرَانِيَّ الَّذِي كُنْتُ مُصَاحِبًا لَهُ فِي سِجْنِ رَئِيسِ الشُّرْطَةِ، فَأَرْسِلْنِي أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَىٰ السِّجْنِ، فَفِيهِ رَجُلٌ عَالِمٌ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا، فَأَرْسَلَهُ، فَأَتَىٰ السِّجْنَ.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ: يَا يُوسُفَ، أَيُّهَا الْعَظِيمُ الصِّدْقِ فِي كَلَامِكَ وَتَأْوِيلِكَ وَسُلُوكِكَ وَتَصَرُّفَاتِكَ وَصُحْبَتِكَ، فَسِّرْ لَنَا رُؤْيَا مَا رَأَىٰ، سَبْعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ هَزِيلَاتٍ، وَرَأَىٰ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، فَإِنَّ الْمَلِكَ رَأَىٰ هَذِهِ الرُّؤْيَا، لَعَلِّي أَرْجِعُ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَىٰ الْمَلِكِ وَجَمَاعَتِهِ، لِيَعْلَمُوا تَأْوِيلَ مَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، وَلْيَعْلَمُوا مَكَانَتَكَ وَفَضْلَكَ.

لَمْ يَشْتَرِطْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا مَضَىٰ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لَوْ كَانَ سِوَاهُ لَقَالَ: لَا أُعَبِّرُ لَكُمُ الرُّؤْيَا حَتَّىٰ أَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْحَبْسِ، أَوْ حَتَّىٰ يُرَدَّ إِلَيَّ حَقِّي، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَفَادَهُمْ وَأَرَادَ نَفْعَهُمْ.

قَالَ يُوسُفُ مُعَبِّرًا لِتِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ الْوَضْعِ الزِّرَاعِيِّ وَالِاقْتِصَادِيِّ وَالْمَالِيِّ خِلَالَ الْخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً الْقَادِمَةِ، بِمَا فِيهَا مِنْ رَخَاءٍ، ثُمَّ قَحْطٍ، ثُمَّ غَوْثٍ، ازْرَعُوا سَبْعَ سِنِينَ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ عَلَىٰ عَادَتِكُمُ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي الزِّرَاعَةِ، فَمَا حَصَدْتُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ فَاتْرُكُوهُ فِي سُنْبُلِهِ؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ وَيَقَعَ فِيهِ السُّوسُ، وَاحْفَظُوا أَكْثَرَهُ لِوَقْتِ الْحَاجَةِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَهُ مِنَ الْحُبُوبِ.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ الدَّأَبِ فِي الزِّرَاعَةِ -زِرَاعَةِ الْأَقْوَاتِ وَادِّخَارِهَا- طَوَالَ السِّنِينَ السَّبْعِ الْمُخْصِبَةِ، يَأْتِي سَبْعُ سِنِينَ مُجْدِبَةٍ، تَكُونُ مُمْحِلَةً شَدِيدَةً عَلَىٰ

النَّاسِ، يَأْكُلُ النَّاسُ وَتَأْكُلُ مَوَاشِيهُمْ فِيهَا مَا زَرَعْتُمْ وَادَّخَرْتُمْ لَهُنَّ مِنَ الطَّعَامِ فِي سَنَوَاتِ الْخِصْبِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْفَظُونَهُ وَتَدَّخِرُونَهُ؛ احْتِيَاطًا لِلطَّوَارِئِ الْمُلْجِئَةِ الَّتِي قَدْ يُسْمَحُ فِيهَا بِالْأَخْذِ مِنَ الِاحْتِيَاطِيِّ بِمَقَادِيرِ الضَّرُورَةِ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: لَيْسَ فِي الرُّؤْيَا الَّتِي رَآهَا الْمَلِكُ أَدْنَىٰ إِشَارَةٍ إِلَىٰ عَامِ الْغَوْثِ هَذَا، فَهَذَا التَّأْوِيلُ عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ، فِيهَا سَبْعٌ مِنَ السَّنَوَاتِ -كَمَا أَوَّلَ- يَكُونُ فِيهَا الْخِصْبُ، ثُمَّ سَبْعٌ مِنَ السَّنَوَاتِ يَكُونُ فِيهَا الْجَدْبُ، وَلَيْسَ فِي الرُّؤْيَا أَدْنَىٰ إِشَارَةٍ إِلَىٰ عَامِ الْغَوْثِ هَذَا.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ هَذِهِ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةِ عَامٌ تَرْجِعُ فِيهِ تَصَارِيفُ الْكَوْنِ إِلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَفِيهِ تَنْزِلُ الْأَمْطَارُ النَّافِعَةُ الَّتِي يُنْبِتُ اللهُ بِهَا الزُّرُوعَ، وَفِيهَا يَعْصِرُونَ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُعْصَرَ مِنْ نَحْوِ الْعِنَبِ وَالزَّيْتُونِ وَالْقَصَبِ، وَتَكْثُرُ النِّعَمُ عَلَىٰ النَّاسِ.

لَمْ يَكْتَفِ يُوسُفُ عليه السلام بِتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَلْ بَادَرَ فَوَضَعَ لَهُمْ خُطَّةَ عَمَلٍ لِمُوَاجَهَةِ سَنَوَاتِ الْقَحْطِ وَالْجَفَافِ، وَهِيَ خُطَّةٌ اقْتِصَادِيَّةٌ تَتَنَاوَلُ الْحَيَاةَ الزِّرَاعِيَّةَ وَالتَّمْوِينِيَّةَ لِلْأُمَّةِ خِلَالَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً تَأْتِي عَلَىٰ اسْتِقْلَالٍ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) سُورَةَ يُوسُفَ الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ ١٤٣٦هـ الْمُوَافِقَ ٥/ ١٠/ ٢٠١٥م وَ الثُّلَاثَاءَ ٢٢ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ ١٤٣٦هـ الْمُوَافِقَ ٦/ ١٠/ ٢٠١٥م

وَكَمَا يُعَلِّمُنَا اللهُ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي الْقِصَّةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَيَّامِ يُوسُفَ عليه السلام

يُعَلِّمُنَا الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ عليها السلام:

* وَدُونَكَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَمْرِ أُمِّ عِيسَىٰ عليه السلام إِذْ أَجَاءَهَا فَأَلْجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ هُنَالِكَ وَهِيَ فِي كَرْبٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَهَا طَلْقُهَا بِأَمْرِ رَبِّهَا، وَأَرَادَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُبْدِيَ فِي الْوُجُودِ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِهِ، مِنْ أَنَّهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، فَأَخْرَجَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِيسَىٰ عليه السلام بِوَسَاطَةِ أُنْثَىٰ وَلَا ذَكَرَ، ثُمَّ يَقُولُ رَبُّكَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]

وَقُلْ لِي بِرَبِّكَ، أَوَ يَسْتَطِيعُ عَشَرَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْأَشِدَّاءِ أَنْ يَقُومُوا بِأَصْلِ نَخْلَةٍ عِنْدَ جِذْعِهَا بِاشْتِدَادِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ كُلُّ مِنْهُمْ مَعًا فِيهِ مُتَضَافِرِينَ مُتَعَاوِنِينَ مُتَقَاوِينَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَهُزُّوا جِذْعَ النَّخْلَةِ، وَقَدْ تَسَامَقَتْ فِي السَّمَاءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسَّاقِطَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الرُّطَبِ الْجَنِيِّ مَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُرْسِلٌ إِيَّاهُ، إِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ.

فَكَيْفَ بِامْرَأَةٍ ضَعِيفَةٍ كَانَتْ هُنَالِكَ وَهِيَ تُعَانِي مِنْ آلَامِ الْمَخَاضِ مَعَ مَا هُنَالِكَ مِنْ آلَامِ النَّفْسِ الْكَاسِرَةِ؛ إِذْ إِنَّهَا وَهِيَ الْعَذْرَاءُ الْبَتُولُ الَّتِي لَا يُعْهَدُ عَلَيْهَا وَلَا عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهَا مِنْ رِيبَةٍ وَلَا ظِنَّةٍ وَلَمْ تُكَلِّمْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ أَحَدٍ عَلَىٰ مَدَارِ تَارِيخِ تِلْكَ الْأُسْرَةِ، وَقَدْ تَطَاوَلَتْ نَزَاهَةً وَثَبَاتًا، وَطُهْرًا، ثُمَّ تَأْتِي هَذِهِ الْكَسْرَةُ عَلَىٰ هَذَا اللَّوْنِ، ثُمَّ تَضَعُ ذَلِكَ الْوَلِيدَ، وَهِيَ فِي قَوْمٍ بُهْتٍ يَجْعَلُونَ مِنْ لَا شَيْءَ شَيْئًا،

وَيَتَقَوَّلُونَ عَلَىٰ الْأَشْرَافِ بِالظِّنَّةِ، فَكَيْفَ بِالدَّلِيلِ، ثُمَّ إِنَّهَا قَدْ أَتَاهَا مَا أَتَاهَا مِنْ مَجْمُوعِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِمَّا أَصَابَ الْبَدَنَ، وَمِمَّا أَصَابَ الْقَلْبَ وَالرُّوحَ، ثُمَّ يَأْتِيهَا أَمْرُ رَبِّهَا، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ﴾

﴿وَهُزِّيٓ﴾ وَالْهَزُّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِشِدَّةٍ مَعَ عُنْفٍ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْمُرُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهَا أَنْ تَفْعَلَ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ التَّأْثِيرُ.

فَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَمَسَّكُوا بِهِ لَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ جَعَلَ فِيهِ مِنَ السُّنَنِ الْفَاعِلَةِ الْحَاكِمَةِ فِي كَوْنِهِ بِأَمْرِهِ، وَقَدَرِهِ مَا يُعْلِيهِمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ عَنْ حِطَّةِ الْمَذَلَّةِ، وَعَنْ وَهْدَةِ الضَّعَةِ، وَعَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخُمُولِ وَالِانْحِطَاطِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوا فِي الْحَقِيقَةِ حَقِيقَةَ هَذَا الدِّينِ.(*).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]

(وَحَرِّكِي إِلَيْكِ بِسَاقِ النَّخْلَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا ثَمَرٌ عَادَةً، تَسَاقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا طَرِيًّا فِي أَوَانِ اجْتِنَائِهِ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ مَطْلُوبٌ، وَلَا يُنَاقِضُ التَّوَكُّلَ، فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ، وَأَنْ يُبْقِي اعْتِمَادَهُ وَتَوَكُّلَهُ عَلَىٰ اللهِ، لَا عَلَىٰ مَا بَاشَرَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ).(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) سُورَةَ مَرْيَمَ الِاثْنَيْنِ ٦ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٧هـ الْمُوَافِقَ ١٩/ ١٠/ ٢٠١٥م

ذُو الْقَرْنَيْنِ عليه السلام:

وَكَانَ مَا فَعَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ عليه السلام سَبَبًا فِي نَجَاةِ قَوْمٍ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ:

* (وَذُو الْقَرْنَيْنِ مَلِكٌ صَالِحٌ، أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَأَسْبَابِ الْمُلْكِ وَالْفُتُوحِ مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ، فَذَكَرَ اللهُ مِنْ حُسْنِ سِيرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُوَّةِ مُلْكِهِ وَتَوَسُّعِهِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَا يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ التَّامُّ مِنْ سِيرَتِهِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣].

أَيْ: بَلَغَ مَحَلًّا مُتَوَسِّطًا بَيْنَ السَّدَّيْنِ الْمَوْجُودَيْنِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ، وَهُمَا سَلَاسِلُ جِبَالٍ عَظِيمَةٍ شَاهِقَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْفَجْوَةِ، فَوَجَدَ عِنْدَ تِلْكَ الْفَجْوَةِ الَّتِي بَيْنَ سَلَاسِلِ هَذِهِ الْجِبَالِ قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا؛ مِنْ بُعْدِ لُغَتِهِمْ، وَثِقَلِ فَهْمِهِمْ لِلُغَاتِ الْأُمَمِ:

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]؛ وَهُمْ أُمَمٌ عَظِيمَةٌ -يَعْنِي: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ- مِنْ نَسْلِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ مِنَ الْعَنَاصِرِ التُّرْكِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ مُفَصَّلٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَشْرُوحٍ مِنْ صِفَاتِهِمْ، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥] مِنَ الْقُوَّةِ وَالْأَسْبَابِ وَالِاقْتِدَارِ خَيْرٌ.

﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾؛ أَيْ: إِنَّ هَذَا بِنَاءٌ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ فِي الْإِعَانَةِ عَلَيْهِ إِلَىٰ مُسَاعَدَةٍ قَوِيَّةٍ فِي الْأَبْدَانِ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، وَلَمْ يَقُلْ: سَدًّا؛ لِأَنَّ الَّذِي بَنَىٰ فَقَطْ هُوَ تِلْكَ الثَّنِيَّةُ وَالرِّيعُ الْوَاقِعُ بَيْنَ السَّدَّيْنِ الطَّبِيعِيَّيْنِ؛ أَيْ: بَيْنَ

سَلَاسِلِ تِلْكَ الْجِبَالِ، فَدَبَّرَهُمْ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ آلَاتِهِ وَبُنْيَانِهِ فَقَالَ: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾؛ أَيِ: اجْمَعُوا لِي جَمِيعَ قِطَعِ الْحَدِيدِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَلَا تَدَعُوا مِنَ الْمَوْجُودِ شَيْئًا، وَارْكُمُوهُ بَيْنَ السَّدَّيْنِ.

فَفَعَلُوا ذَلِكَ حَتَّىٰ كَانَ الْحَدِيدُ تُلُولًا عَظِيمَةً مَوَازِيَةً لِلْجِبَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾؛ أَيِ: الْجَبَلَيْنِ الْمُكْتَنِفَيْنِ لِذَلِكَ الرَّدْمِ، ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]؛ أَيْ: أَمَرَ بِالنُّحَاسِ فَأُذِيبَ بِالنِّيرَانِ، وَجَعَلَ يَسِيلُ بَيْنَ قِطَعِ الْحَدِيدِ فَالْتَحَمَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَصَارَتْ جَبَلًا هَائِلًا مُتَّصِلًا بِالسَّدَّيْنِ؛ فَحَصَلَ بِذَلِكَ الْمَقْصُودُ مِنْ عَيْثِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمِنْ إِفْسَادِهِمَا.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أَيْ: يَصْعَدُوا ذَلِكَ الرَّدْمَ ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٧-٩٨]؛ أَيْ: رَبِّي الَّذِي وَفَّقَنِي لِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ، وَالْأَثَرِ الْجَمِيلِ، فَرَحِمَكُمْ؛ إِذْ مَنَعَكُمْ مِنْ ضَرَرِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِهَذَا السَّبَبِ الَّذِي لَا قُدْرَةَ لَكُمْ عَلَيْهِ).(*).

نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ:

* وَقَدْ كَانَ مِنْ دَأْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَلْبُهُ تَوَكُّلًا مُطْلَقًا، وَهُوَ آخِذٌ بِأَسْبَابِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْهِجْرَةَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ (شَرْحِ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) الْمُحَاضَرَةَ (١٧) الثُّلَاثَاءَ ٣ مِنْ ذِي الْحَجَّةِ ١٤٣٤هـ الْمُوَافِقَ ٨/ ١٠/ ٢٠١٣م

ﷺ أَعَدَّ لَهَا الْعُدَّةَ، وَخَرَجَ فِي وَقْتٍ مَا يُظَنُّ أَنْ يَخْرُجَ آدَمِيٌّ فِي مِثْلِهِ، عِنْدَمَا تَشْتَعِلُ الْأَرْضُ نَارًا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ بِأَتُّونِ الشَّمْسِ وَسَعِيرِهَا الْمُسْتَعِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَخْرُجُ الرَّسُولُ ﷺ وَأَيْضًا يَذْهَبُ إِلَىٰ دَارِ أَبِي بَكْرٍ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِ الصُّحْبَةَ بِأَمْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَعْنِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمُلْتَهِبِ الْمُسْتَعِرِ.

وَعِنْدَمَا يَدْخُلُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ يَقُولُ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ».

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَيَأْخُذُ بِأَسْبَابِ الْحَيْطَةِ، وَكَانَ قَدْ أَعَدَّ رَاحِلَتَيْنِ يَعْلِفُهُمَا سَلَفًا.

وَيَسْتَأْجِرُ النَّبِيُّ ﷺ دَلِيلًا خِرِّيتًا مَاهِرًا عَالِمًا بِأَطْوَاءِ الطَّرِيقِ وَمَسَالِكِهَا.

وَالرَّسُولُ ﷺ يَخْرُجُ وَصَاحِبُهُ لِيَخْتَبِئَا فِي غَارِ ثَوْرٍ لَيَالِيَ ذَوَاتِ عَدَدٍ(١).

وَالرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ سُرَاقَةَ أَنْ يَكْفِيَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَمْرَهُ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي وَسَطِ هَذَا الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ يَقُولُ لِأَبِي بَكْرٍ مَا تَقُولُ فِي اثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا، «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»(٢).

---

(١) جزء من حديث هجرة النبي ﷺ إلىٰ المدينة، أخرجه البخاري: (٧/ ٢٣٠-٢٣٢، رقم ٣٩٠٥)، من حديث: عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٢) أخرج البخاري: (٧/ ٨ - ٩، رقم ٣٦٥٣)، ومسلم: (٤/ ١٨٥٤، رقم ٢٣٨١)، من حديث: أَنَسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَأَنَا فِي الغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ:

=

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَلْبُهُ، وَهُوَ آخِذٌ بِالْأَسْبَابِ أَيْضًا فَلَا يُضَيِّعُ غَيْبًا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، وَلَا يَأْخُذُ بِأَطْرَافِ أَسْبَابٍ بِطَرِيقَةٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمُوَازَنَةُ الْكَامِلَةُ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ أَنْ يَتَوَكَّلَ الْقَلْبُ عَلَىٰ رَبِّ الْأَرْبَابِ مَعَ الْأَخْذِ بِالْحَيْطَةِ وَالْأَسْبَابِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ فِيمَا هُوَ لِلَّهِ يَصْرِفُهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا هُوَ مِنْ أَمْرِ الْأَسْبَابِ يَجْعَلُهُ عَالِقًا بِالْأَسْبَابِ لَا يَغِيبُ عَنْهَا وَلَا يَرِيمُ.

وَهَذَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَوْقِفٍ يَصْرِفُ فِيهِ لَفْظَ الرَّجُلِ عَنْ جَادَّةٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمَةٍ إِلَىٰ الْجَادَّةِ الَّتِي اسْتَقَامَتْ عَلَىٰ السَّنَنِ عِنْدَمَا يَقُولُ لَهُ الرَّجُلُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ.

فَيَقُولُ: «وَيْحَكَ أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا»، وَلَكِنْ قُلْتَ -إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ، وَإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِنْ قَوْلِهِ، فَقُلْ-: «مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ»(١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَقْبَلُ التَّشْرِيكَ هَهُنَا؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، فَمِثْلُ هَذِهِ الْمَشِيئَةِ إِنَّمَا هِيَ عَالِقَةٌ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ بِأَسْبَابٍ مَتِينَةٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُصْرَفَ عَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِثْلَ هَذَا الصَّرْفِ أَبَدًا.

=

«مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

(١) أخرج ابن ماجه في «السنن»: (١/ ٦٨٤، رقم ٢١١٧)، وأحمد في «المسند»: (١/ ٢١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص ٢٠٤، رقم ٧٨٣)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وفي رواية: «إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ».

فِي حِينَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ يَقُولُ ﷺ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّىٰ لَنَا».

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ هَهُنَا تَضْمِينٌ فِي هَذَا الْحَرْفِ، يَعْنِي صَلَّىٰ بِنَا أَوْ هِيَ السَّبَبِيَّةُ صَلَّىٰ لِأَجْلِنَا، «صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ» ﷺ الصُّبْحَ بِالْحُدَيْبِيَةِ.

وَالْحُدَيْبِيَةُ وَالْحُدَيْبِيَّةُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّسْهِيلِ مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ لُغَتَانِ، وَالْأَفْصَحُ التَّسْهِيلُ مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ.

«صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الصُّبْحَ»، يَعْنِي صَلَاةَ الصُّبْحِ صَلَاةَ الْفَجْرِ «صَلَّىٰ لَنَا الصُّبْحَ» ذَاتَ يَوْمٍ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عِنْدَمَا أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَعْتَمِرَ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وَمَعَ ذَلِكَ صَدُّوا النَّبِيَّ الْمَأْمُونَ ﷺ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الصُّلْحِ بِشُرُوطِهِ عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْلُومٌ.

فَلَمَّا أَنْ كَانُوا هُنَالِكَ، وَمَنَعَتِ السَّمَاءُ بِأَمْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَطْرَهَا، وَلَمْ تَبِضَّ الْأَرْضُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِلَيْلٍ رَحْمَةً وَغِيَاثًا، وَأَصَابَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْأَرْضَ وَالنَّاسَ وَمَنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ شَامِلَةٍ وَرَأْفَةٍ مِنْهُ غَامِرَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحَ النَّاسُ فَصَلَّوْا وَرَاءَ الرَّسُولِ ﷺ صَلَاةَ الْغَدَاةِ قَالَ: «عَلَىٰ إِثْرِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَىٰ أَثَرِي»، يَعْنِي بِعَقِبِ سَمَاءٍ كَانَتْ بِلَيْلٍ،

---

(١) «صحيح البخاري»: (٢/ ٣٣٣، رقم ٨٤٦)، وأخرجه مسلم في «الصحيح»: (١/ ٨٣، رقم ٧١).

يَعْنِي عَلَىٰ عَقِبِ مَطَرٍ بِلَيْلٍ؛ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، فَسَمَّاهُ بِاسْمِ الْجِهَةِ عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ أَيْ مَطَرٍ كَانَتْ بِلَيْلٍ.

فَلَمَّا صَلَّىٰ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟».

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَالَ رَبُّكُمْ: وَهَهُنَا تَشْرِيكٌ كَمَا تَرَىٰ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْتَرِضْ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، عِنْدَمَا جَمَعُوا هَهُنَا بِهَذِهِ الْوَاوِ عَطْفًا، فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ.

وَأَمَّا هُنَالِكَ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ الرَّجُلُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشِئْتَ، قَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا»؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ هَهُنَا يَتَعَلَّقُ بِمَا هُوَ كَوْنِيٌّ لَا بِمَا هُوَ عِلْمِيٌّ.

وَأَمَّا هُنَالِكَ، اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَعْلَمُ مَا يُعَلِّمُهُ اللهُ رَب الْعَالَمِينَ إِيَّاهُ.

اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

وَهَهُنَا إِشْكَالٌ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بِالْبِنْيَةِ يَتَعَلَّقُ بِالنَّحْوِ ظَاهِرًا لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَقُولُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ يَأْتِي بِالْمُفْرَدِ فِي مُقَابِلِ الْمُثَنَّىٰ.

وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ: إِنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ إِنْ نُوِيَ بِمَعْنَاهُ مِنْ ثَمَّ عَرِيَ مِنَ الْإِضَافَةِ، وَعَرِيَ مِنْ ال، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَأْتِي فِيمَا هَهُنَا، كَمَا هَهُنَا عَلَىٰ التَّذْكِيرِ وَالْإِفْرَادِ «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

هَذَا أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِمَا يَعَلِّمُهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ وَخَلِيلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَمَرَّ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ غَيْرِ تَعْقِيبٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ رَبُّكُمْ جَلَّ وَعَلَا: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ»، وَفِي رِوَايَةٍ «كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ» «وَمَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

فَانْظُرْ! كَيْفَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعُودُ بِالْقُلُوبِ بِزِمَامِهَا إِلَىٰ جَنَابِ تَوْحِيدِ رَبِّهَا مُتَوَكِّلَةً عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ غَيْرِ مَا رِعَايَةٍ لِسَبَبٍ لَا مَحَلَّ لَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، لَمْ يَجْعَلْ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهَا مَدْخَلًا، وَلَا لِأَحَدٍ فِيهَا مِنْ سَبَبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مَوْكُولٌ بِالْمَشِيئَةِ الْعُلْيَا وَالْقُدْرَةِ الْمُطْلَقَةِ.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَلِذَلِكَ يَأْخُذُ النَّبِيُّ ﷺ الْأَلْسُنَ عَلَىٰ مَنْهَجِ الِاسْتِقَامَةِ حَتَّىٰ لَا تَزِلَّ وَلَا تَزِيغَ وَلَا تَنْحَرِفَ، وَلَوْ كَانَ فِي لَفْظٍ رُبَّمَا لَا يَدْرِي قَائِلُهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ النَّوْءَ أَنَّ الْكَوْكَبَ هُوَ الَّذِي يُوجِدُ الْمَطَرَ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْمِلَّةِ قَوْلًا وَاحِدًا، بِلَا مَثْنَوِيَّةٍ.

وَأَمَّا مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ النَّوْءَ أَنَّ الْكَوْكَبَ سَبَبٌ فِي نُزُولِ الْمَطَرِ فَهَذَا شِرْكٌ أَصْغَرُ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، كَمَا يَقُولُ عُلَمَاؤُنَا.

وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ ظَرْفًا لِذَلِكَ فَلَا تَثْرِيبَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَطَّلِعُ كَوْكَبٌ بِعَيْنِهِ فَفِي أَوَانِ طُلُوعِهِ يَنْزِلُ الْمَطَرُ.

إِذَنْ؛ هُوَ عِلْمُ تَسْيِيرٍ لَا عِلْمُ تَسْخِيرٍ.

وَعَلَيْهِ، فَكُلُّ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ، إِنْ أَخَذُوهَا عَلَىٰ أَنَّهَا مَعْرِفَةٌ لِسُنَنِ اللهِ فِي كَوْنِهِ وَمَا جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الَّتِي أَقَامَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا حَاكِمَةً بِذَاتِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ بِأَمْرِ رَبِّهَا جَلَّوَعَلَا تَعْمَلُ عَمَلَهَا بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَذَلِكَ مَعْرِفَةٌ لِلتَّسْيِيرِ وَلَيْسَ لِلتَّسْخِيرِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ بُنِيَ عَلَىٰ التَّسْخِيرِ، وَأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَا يُسَمُّونَهُ الطَّبِيعَةَ فِي كَوْنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمَخْلُوقِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِلَا خَرْمَ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا فِيهِ، وَإِنَّمَا كُلُّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا مُشَاحَّةَ فِي أَنَّهُ لَا يَطْعَنُ فِي سَوَادِ عَيْنِ حَدَقَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِمَّا يَقْبَلُهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنْ رِعَايَةِ الْمَقَامَاتِ فِيهِ.

فَهَذَا نَبِيُّنَا ﷺ لَا يَدَعُ لَحْظَةً تَمُرُّ وَلَا مُنَاسَبَةً تَعْرِضُ إِلَّا وَيُقِيمُ فِيهَا الْأَقْدَامَ ﷺ عَلَىٰ جَادَّةِ الْإِسْلَامِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ مِنْ آيَةٍ ظَاهِرَةٍ وَلَا مِنْ سُلْطَةٍ مُحْكَمَةٍ لِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا هَذَا التَّوَازُنُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَيْنَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فِي هَذَا التَّوَكُّلِ الْعَجِيبِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الشَّرِيفِ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْنَا بِهِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدِّينِ إِلَّا هَذِهِ الْخَصْلَةِ لَكَانَتْ دَالَّةً بِذَاتِهَا جَازِمَةً بِأَسْبَابِهَا أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ بَشَرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ خَالِقِ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَإِذَنْ؛ فَهَذَا هُوَ نَبِيُّنَا ﷺ تَنْزِلُ أَمْطَارٌ بِلَيْلٍ فَإِذَا مَا أَصْبَحَ رَدَّ الْقَوْمَ إِلَىٰ الْجَادَّةِ وَكَانُوا عَلَيْهَا سَائِرِينَ، وَلَكِنَّهُ يُخْبِرُ عَنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ عَلَّمَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهُ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ، يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: «أَتَدْرُونَ، أَتَعْلَمُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ؟».

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَالَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَذَا، مِمَّا أَوْحَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ بِهِ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ عَلَّمَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهُ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَنْتَهِزُ فُرْصَةً سَنَحَتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَلْسُنَ عَلَىٰ قَانُونٍ فِي التَّوْحِيدِ، إِنَّمَا تَمِلُّ بِهِ هَذِهِ الْأَقْلَامُ أَيِ الْأَلْسِنَةُ مِنْ دَوَاةِ الْقَلْبِ صَرْفًا بِتَوْحِيدٍ لَا شَائِبَةَ فِيهِ، وَلَا شِرْكَ.

ثَمَّ إِنَّ الْأَمْرَ مَعَ ذَلِكَ، فَيَجْعَلُهُ نَبِيُّنَا ﷺ مُرْتَبِطًا بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ.(*).

❋ ❋ ❋

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ:

وَنَبِيُّنَا ﷺ يُعَلِّمُ التَّوَكُّلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ:

* فَإِنَّهُ كَمَا رَوَىٰ أَنَسٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَكَذَلِكَ رَوَىٰ مِثْلَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١)، فِيمَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ أَنَّ أَعْرَابِيًا جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ نَاقَتِهِ فَسَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟

قَالَ: «بَلِ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الصحيح» بترتيب ابن بلبان: (٢/ ٥١٠-٥١١، رقم ٧٣١)، والحاكم: (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٢/ ٤٢٧-٤٢٨).
قال الألباني في تخريج «مشكلة الفقر»: (ص٢٣، رقم ٢٢): «رجاله ثقات رجال الشيخين غير يَعْقُوبَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ لم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، وأما ابن حبان فذكره في الثقات لهذه الرواية، واعتمد عليه غير واحد فوثقوه».

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع»: (٤/ ٦٦٨، رقم ٢٥١٧)، من حديث: أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ».

=

يَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ سَائِلًا النَّبِيَّ ﷺ: أَيَكْفِي عَقْدُ الْقَلْبِ مُتَوَكِّلًا عَلَىٰ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا مُهْدِرًا لِلْأَسْبَابِ فِي الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَصِيرُ فِيهَا الْأُمُورُ إِلَّا بِأَسْبَابِهَا بِقَدَرِ رَبِّهَا، أُطْلِقُهَا؟ أُطْلِقُ النَّاقَةَ تَرْعَىٰ كَيْفَمَا شَاءَتْ وَحَيْثُمَا يَحْلُو لَهَا وَأَتَوَكَّلُ؟

قَالَ ﷺ: «بَلِ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَمْرَيْنِ هَهُنَا فِي قَرَنٍ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ إِشَارَةً إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ، وَأَسْبَابِهَا الَّتِي تَعْرِضُ جَمِيعُهَا لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ.

وَأَمَّا مَا كَانَ فِي حَالَةِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَوَاكُلٍ لَا تَوَكُّلٍ مِنْ أُمُورٍ أَغْرَقُوا فِيهَا عَلَىٰ غَيْبٍ غَيْرِ مَنْظُورٍ، ثُمَّ فَرَّطُوا فِيمَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ مِنْ تَوَازُنٍ مُدْهِشٍ أَتَىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ كَقَانُونٍ كَطَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَضَعُ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ خُطَىٰ أَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنْ كَبِدِ الصَّحَرَاءِ مِنْ بَاطِنِ الْفَلَوَاتِ مَا يَزَالُ يَضْرِبُ كَبِدَ نَاقَتِهِ إِلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ مُسْتَرْشِدًا، فَإِذَا مَا حَلَّ عِنْدَهُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ آخِذًا بِهِ؛ إِذْ إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِمَحْضِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا أَتَىٰ بِأَسْبَابٍ فَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي أَتَىٰ بِهِ مَنْ أَخَذَهِ بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ.

ثُمَّ عَرَضَ اسْتِشْكَالًا أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ: أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ.

قَالَ: لَا «بَلِ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» ﷺ.

=

والحديث حسنه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر»: (ص ٢٣، رقم ٢٢).

نَبِيُّنَا الْمُتَوَكِّلُ:

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥]

عِنْدَ هَذَا الْبَابِ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مَا كَانَ مِنْ بِشَارَةِ التَّوْرَاةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: «وَسَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ»(١)، فَاسْمُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ قُلُوبِ النَّبِيِّينَ السَّالِفِينَ، اسْمُ نَبِيِّكُمْ ﷺ الْمُتَوَكِّلُ، يَقُولَ لَهُ رَبُّهُ: «وَسَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ».

أَخْذُهُ ﷺ بِالْأَسْبَابِ مَعَ تَوَكُّلِهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ:

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ آخِذًا بِأَسْبَابٍ تَكُونُ رَمْزِيَّةً مَتَىٰ تَعَلَّقَتْ بِالْبَشَرِ وَقُوَاهُمْ، وَلَكِنَّهَا عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا فِي النَّفَاذِ وَعَلَىٰ حَقِيقَتِهَا فِي التَّأْثِيرِ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِرَبِّ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَجَعَلَهَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، يَقُولُ: «أَلَا شَاهَتِ الْوُجُوهُ»(٢)، يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال:١٧]

---

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣، رقم ٢١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (١/ ٣٠٤، رقم ٢٧٦٢)، وسعيد بن منصور في «السنن»: (٢/ ٣٧٨، رقم ٢٩١٣)، و «صحيح ابن حبان» بترتيب ابن بلبان: (١٤/ ٤٣٠، رقم ٦٥٠٢).

والحديث صححه الألباني في «الصحيحة»: (٦/ ٧٨١ - ٧٨٢، رقم ٢٨٢٤).

فَمَا مِنْ عَيْنٍ إِلَّا وَأَوْصَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، فَهَذَا أَمْرُهُ وَهَذَا فِعْلُهُ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ.

وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَأْخُذُ تِلْكَ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابَ بِأَسْبَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي كَوْنِ اللهِ، وَهَذَا مَا نَسْتَطِيعُ، وَمِثْلُ هَذَا يَفْعَلُهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ عِنْدَمَا ضَاقَتِ الْحَلَقَةُ عَلَيْهِ جِدًّا؛ وَإِذْ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ تِسْعَةُ نَفَرٍ مِنْ خَاصَّةِ آلِ بَيْتِهِ، وَوَلَّىٰ الْجَمْعُ الْأَدْبَارَ عِنْدَ الدَّفْعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْأُولَىٰ، ثُمَّ صَاحَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه صَيْحَتَهُ حَتَّىٰ فَاءَ الْقَوْمُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ حَصَىٰ كَانَ هُنَالِكَ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، يَقُولُ: «أَلَا شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ إِلَّا وَأَعْشَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَصَرَهَا، وَإِلَّا أَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ الَّذِي قَذَفَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْءٌ[1].

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٣/ ١٤٠٢، رقم ١٧٧٧)، من حديث: سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، قَالَ:

غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّةً، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرْمِيهِ بِسَهْمٍ فَتَوَارَىٰ عَنِّي، فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ، وَنَظَرْتُ إِلَىٰ الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَّىٰ صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ مُتَّزِرًا بِإِحْدَاهُمَا مُرْتَدِيًا بِالْأُخْرَىٰ، فَاسْتَطْلَقَ إِزَارِي فَجَمَعْتُهُمَا جَمِيعًا، وَمَرَرْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْهَزِمًا وَهُوَ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَىٰ ابْنُ الْأَكْوَعِ فَزَعًا**»، فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**»، فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ ﷻ، وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ =

وَهَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ يَأْمُرُهُ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا بِأَمْرٍ فَيُبَلِّغُهُ، وَهُوَ ﷺ لَا يَكْتُمُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْبَلَاغِ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] أَيْ كَافِينَا وَرَاعِينَا وَحَافِظُنَا ﴿ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

فَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا التَّوَكُّلِ مَعَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ أَخْذٍ بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ، وَهُمْ عَلَىٰ الثُّلُثِ مِنْ تِلْكَ الْقُوَّةِ الْغَاشِمَةِ الْغَشُومِ الَّتِي أَرَادَتِ اسْتِئْصَالَهُمْ مِنْ عَلَىٰ وُهْدَةِ الْأَرْضِ وَتَغْيِيبِهِمْ فِي الْأَرْمَاسِ وَفِي الْقُبُورِ، وَلَكِنْ يَأْتِي هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالُوا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤]

فَانْظُرْ إِلَىٰ تِلْكَ الْعَطَايَا كَيْفَ جَاءَتْ فِي مُقَابِلِ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي يُعْرِبُ فِيهِ الْإِنْسَانُ عَنْ تَوَكُّلِهِ عَلَىٰ رَبِّ الْأَرْبَابِ آخِذًا بِحَقِيقَةِ الْأَسْبَابِ مِنْ غَيْرِ مَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ مِنْ غَيْرِ مَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَضْيِيعٍ.

التَّوَكُّلُ مِنْ عَلَامَةِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ:

وَالنَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ مِنْ عَلَامَةِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ جَعَلَ أَمْرَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ رَبِّ الْأَرْبَابِ مِنْ تِلْكَ الشِّيَاتِ وَالصِّفَاتِ.

=

ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ تِلْكَ الْمُمَيِّزَاتِ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهِيَ مَنْزِلَةٌ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعُلْيَا، وَهِيَ مَرْتَبَةٌ مِنَ الْمَرَاتِبِ الْأَسْمَىٰ إِذْ يَجْعَلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَوْمًا مَأْخُوذُونَ مِنْ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ زَالِفِينَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ دَاخِلِينَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنَاقِشَهُمْ حِسَابًا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْرِيَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا، وَإِنَّمَا الْكَرَامَةُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- يَجْعَلُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَصَّلُوا تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَتَحَصَّلُوا عَلَىٰ تِلْكَ الْمُمَيِّزَاتِ، يَجْعَلُ لَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ الْمُكَرَّمَاتِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّالِفِينَ وَالْخَالِفِينَ، وَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟

قَالَ: قُلْتُ: «أَنَا»، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ الْكَوْكَبَ يَنْقَضُّ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَخَشِيَ أَنْ يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ سَاهِرًا يَتَعَبَّدُ مُتَهَجِّدًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاسْتَدْرَكَ قَائِلًا: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ»، فَلَا تَظُنُّوا أَنِّي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنَا دُونَ ذَلِكَ رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) البخاري: (١٠/ ١٥٥، رقم ٥٧٠٥)، ومسلم: (١/ ١٩٩ - ٢٠٠، رقم ٢٢٠).
وزاد مسلم في روايته: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ،... ».

وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْعِلْمِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- لَا يَتَشَبَّعُونَ بِمَا لَمْ يُعْطَوْا، وَلَا يَتَجَمَّلُونَ بِمَا لَمْ يُؤْتَوْا، وَإِنَّمَا يَبْدُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ حَقَائِقِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَا تَزْيِينٍ وَلَا تَجْمِيلٍ، وَلَا فَضِيحَةٍ لِلنَّفْسِ عِنْدَ التَّقْصِيرِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

وَهَذَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَمَا يَعْرِضُ رِجَالٌ أَمَامَهُ تَقْبِيلَ يَدِ الْعَالَمِ فَنَهَىٰ الْحَسَنُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَوَلَمْ يَقُلْ عُلَمَاؤُنَا، إِنَّهُ جَائِزٌ لَا شَيْءَ فِيهِ.

قَالَ: «وَهَلْ رَأَيْتَ عَالِمًا؟»(١).

يَقُولُ الْحَسَنُ وَهُوَ مِنَ التَّابِعِينَ الْكِبَارَ رَحِمَهُ اللهُ، يَقُولُ: «وَهَلْ رَأَيْتَ عَالِمًا»؛ فَإِذَا رَأَيْتَ عَالِمًا فَاعْمَلْهَا وَافْعَلْهَا، وَلَا تَثْرِيبَ عَلَيْكَ.

يَقُولُ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللهُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، فَجَاءَنِي عَقْرَبٌ يَدِبُّ دَبِيبًا عَلَىٰ الْأَرْضِ مَا زَالَ مُتَلَصِّصًا مَاكِرًا، هُوَ مُتَسَلِّلًا حَتَّىٰ وَقَعَ عَلَيَّ فَلَدَغَنِي.

---

(١) أخرج ابن سعد في «**الطبقات**»: (٧/ ١٧٧) ، والدارمي في «**المسند**»: (١/ ٣٣٧، رقم ٣٠٢) ، والطبري في «**تاريخه**»: (١١/ ٦٣٧ - ٦٣٨) ، وعبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «**الزهد**»: (ص ٢١٦ - ٢١٧، رقم ١٥١٣ و ١٥١٦) ، والآجري في «**أخلاق العلماء**»: (ص ٧٣) ، والخطيب في «**الفقيه والمتفقه**»: (٢/ ٣٤١، رقم ١٠٦٧) ، بإسناد صحيح: أن الْحَسَنَ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ فتكَلَّمَ فيها، فقال الرجل: يا أبا سعيد، إِنَّ الْعُلَمَاءَ يُخَالِفُونَكَ!
فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ رَأَيْتَ عَالِمًا قَطُّ، ذَهَبَ العلماء بكل بلد،... » فذكره.
وفي رواية: «... ، وَهَلْ رَأَيْتَ فَقِيهًا قَطُّ؟ ،... ».

قَالَ: «فَمَا صَنَعْتَ؟».

قَالَ: «ارْتَقَيْتُ»، يَعْنِي طَلَبْتُ مَنْ يَرْقِينِي بِرُقْيَةٍ تُذْهِبُ عَنِّي هَذَا السُّمَّ.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ عَلَائِمِ وَدَلَائِلِ صِدْقِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَرْبِطَ رَبْطًا ظَاهِرًا بَيْنَ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ وَتِلَاوَةِ آيَاتِهَا عَلَىٰ رَجُلٍ قَدْ سَرَىٰ السُّمُّ فِي شَرَايِينِهِ وَأَوْرِدَتِهِ، وَقَدْ ظَلَّ سَارِحًا فِي جَسَدِهِ، وَاصِلًا إِلَىٰ خَلَايَاهُ، وَلَكِنَّهُ إِذَا مَا ارْتَقَىٰ أَوْ رَقِيَ -كَمَا سَتَرَىٰ إِنْ شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- أَزَالَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَا هُنَالِكَ.

قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ؟

قَالَ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، فَأَخَذَ يُحَاوِرُهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُثِيبَ عِلْمًا إِلَىٰ عِلْمٍ عِنْدَهُ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُمَارِيَهُ مُجَادِلًا، كَمَا يَفْعَلُ أَوَاسِطُ الطَّلَبَةِ وَرِذَالَتُهُمْ وَسَاقِطُوهُمْ الَّذِينَ لَا يَرْتَقُونَ إِلَىٰ ارْتِقَاءِ حَسَنٍ تَتَّسِعُ بِهِ النَّفْسُ وَيَرْتَقِي بِهِ الْفُؤَادُ وَيَتَّسِعُ بِهِ الضَّمِيرُ وَالْأُفُقُ.

فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ مِنْ أَمْرِ الرُّقْيَةِ؟

قَالَ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ.

قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟

قَالَ: حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، يَعْنِي إِلَّا مِنْ حَسَدٍ يُؤَثِّرُ.

وَالْحَسَدُ كَمَا يَقُولُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»(١).

بَلْ إِنَّهُ يَقُولُ ﷺ: «إِنَّ عَامَّةَ مَنْ يَمُوتُ إِنَّمَا يَمُوتُ بِالْعَيْنِ»(٢)، يَعْنِي بِالْحَسَدِ.

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتَسْتَنْزِلُ الرَّجُلَ مِنْ حَالِقٍ»(٣)، حَتَّىٰ يَصِيرَ لَا شَيْءَ، هَالِكًا، فَهَذَا الْحَسَدُ الَّذِي تَأْتِي بِهِ تِلْكَ النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَىٰ الشَّرِّ وَالْحِقْدِ وَالْمَوْجِدَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ١٧١٩، رقم ٢١٨٨)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطيالسي في «**المسند**»: (٣/ ٣١٧، رقم ١٨٦٨)، والبخاري في «**التاريخ الكبير**»: (٤/ ٣٦٠، رقم ٣١٤٤)، وابن أبي عاصم في «**السنة**»: (١/ ١٣٦، رقم ٣١١)، والبزار كما في زوائد الهيثمي: (٣/ ٤٠٣، رقم ٣٠٥٢)، والعقيلي في «**الضعفاء**»: (٢/ ٢٣١، ترجمة ٧٨٠)، وابن عدي في «**الكامل**»: (٦/ ٣٥٠، رقم ٩٧٧٦ و٩٧٧٧)، من حديث: جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ كِتَابِ اللهِ ﷻ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ**»، يَعْنِي الْعَيْنَ.
والحديث حسن إسناده ابن حجر في «**فتح الباري**»: (١٠/ ٢٠٤)، وكذا الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ٣٧٢-٣٧٣، رقم ٧٤٧).

(٣) أخرجه أحمد: (١/ ٢٧٤ و٢٩٤، رقم ٢٤٧٧ و٢٤٧٨ و٢٦٨١)، والطبراني في «**الكبير**»: (١٢/ ١٨٤، رقم ١٢٨٣٣)، والحاكم: (٤/ ٢١٥، رقم ٧٤٩٨)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ»، وحسنه بشاهده الألباني في «**الصحيحة**»: =

يَقُولُ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ عَانَهُ عَائِنٌ بِعَيْنٍ فَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَرْقِيَ حِينَئِذٍ «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، يَعْنِي إِلَّا مِنْ ضَرْبَةِ عَقْرَبٍ أَوْ مِنْ لَدْغَةٍ تَتَأَتَّىٰ مِنْ أَفْعَىٰ.

نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

فَقَالَ: هَذَا الرَّجُلُ رَحِمَهُ اللهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا عَلِمَ».

هَذَا عِلْمُكَ وَقَدِ انْتَهَيْتَ إِلَيْهِ، فَجَزَاكَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا خَيْرًا.

قَالَ: وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ» فِي مَرْأًىٰ يَرَاهُ الرَّسُولُ ﷺ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَلَا أَحَدَ مَعَهُ»، يَأْتِي وَحْدَهُ، وَهُوَ قُدْوَةٌ سُلُوكِيَّةٌ بِمَنْهَجٍ مُنْضَبِطٍ بِوَحْيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ لَا يُطِيعُهُ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا يُكَذَّبُ تَكْذِيبًا مُصمَطًا لَا مَنْفَذَ فِيهِ، وَلَا نُفُوذَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَأْتِي وَحْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ عُرِضَ إِلَيَّ سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقُلْتُ: أُمَّتِي، فَقِيلَ هَذِهِ أُمَّةُ مُوسَىٰ، مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «ثُمَّ عُرِضَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ»،

«سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ».

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

=

(٣/ ٢٥١، رقم ١٢٥٠).

قَالَ: ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُجْرَتَهُ، فَأَخَذَ النَّاسُ يَتَنَاقَشُونَ، فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَهُ وَمِنْ قَائِلٍ إِنَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُعَانُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ بِشِرْكِهَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ» أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَتَشَاءَمُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ، «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»؛ فَأَتَىٰ بِالْخَصْلَةِ الَّتِي نبحث عَنْهَا هَهُنَا جَعَلَهَا الرَّسُولُ ﷺ مِنْ تِلْكَ الْمُمَيِّزَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ.

❁ ❁ ❁

خَاتِمَةٌ:

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَا أَخَذَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَىٰ رَبِّ الْأَرْبَابِ اسْتَقَامَتِ الرُّوحُ عَلَىٰ مِنْهَاجِ رَبِّهَا وَعَلِمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَنْ يُدْرِكَ إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ، وَإِنَّ حَرَكَةَ حَيَاتِهِ مِمَّا قُدِّرَ لَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِحَرَكَةِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ النَّهْجِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْعَىٰ السَّعْيَ الْجَادَّ الدَّؤُوبَ مِنْ غَيْرِ مَا إِغْرَاقٍ فِيهِ، وَلَا اعْتِمَادٍ عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا الِاعْتِمَادُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمِحْوَرِيَّةِ الْمِفْصَلِيَّةِ الَّتِي يُعَانِي الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ وَفِي أَزْمَانِ الضَّعْفِ السَّابِقَةِ حَتَّىٰ ظَلَّ الْحَالُ مُنْحَدِرًا، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ الْيَوْمَ إِمَّا أَنْ يُغْرِقُوا فِي تَوَاكُلٍ لَا مَعْنًىٰ لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذُوا بِأَسْبَابٍ مِنْ غَيْرِ تَوَكُّلٍ عَلَىٰ رَبِّ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ.

وَالْأَمْرُ بِهَذَا التَّوَازُنِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ قَالَ: لَا، «بَلِ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» ﷺ.

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَاهْدِ قُلُوبَنَا، وَبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَاشْرَحْ صُدُورَنَا وَأَصْلِحْ بَالَنَا.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ (حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ) مَنْشُورَةٌ بِتَارِيخِ ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م

الفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ ٣
الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ ٤
قِصَّةُ: عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٦
التَّوَكُّلِ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ ١٢
التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ ١٤
السَّعْيُ فِي الْأَرْضِ وَالْعَمَلُ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ ٢٢
صُوَرٌ مِنْ حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ تُعَلِّمُنَا الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ ٢٨
اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ ٤٥
خَاتِمَةٌ ٥٦
الْفِهْرِسُ ٥٧

❁ ❁ ❁